

# دولتان فلسطينية وإسرائيلية

أم

## دولة ديمقراطية علمانية واحدة

د. محمد عبد العزيز ربيع

تشير بعض التقارير إلى أن مجموعة من كوادرن فتح أقنعت أخيراً بأن "حل الدولتين" لم يعد ممكناً، وذلك بسبب تعنت الموقف الإسرائيلي، وتخاذل الموقف الأوروبي، واستمرار التأييد الأمريكي لعدوانية إسرائيل وحمايتها من الضغوط الدولية. لهذا تم تشكيل فريق عمل فلسطيني إسرائيلي مشترك لدراسة إمكانية إقامة دولة ديمقراطية علمانية واحدة على أرض فلسطين بحدودها التاريخية. إن إقامة دولة واحدة على كامل التراب الفلسطيني يتعايش العرب واليهود فيها على قدم المساواة هو هدف نبيل، يمثل حلاً عادلاً لقضية فلسطين وتفكيك المشروع الصهيوني. لكن الطريق لمثل هذا الحل لا تأتي بالتفاوض مع إسرائيليين في ظل أوضاع تشهد عربة القوة العسكرية الإسرائيلية، وتخلي قادتها عن العقلانية، ورفض النخبة الحاكمة لأي حل يقوم على الانسحاب من الضفة الغربية والأراضي العربية المحتلة في سورية ولبنان وغيرها من دول عربية. إن التفاوض من هذا المنطلق وفي هذا الوقت بالذات يعني الموافقة مسبقاً على التنازل عن كل أو معظم حقوق اللاجئين الفلسطينيين من ضحايا عمليات التطهير العرقي، وغض النظر عما يجري في الجولان، وما يمكن أن تفعله إسرائيل في لبنان. وعلى الرغم من اعتقادنا بأنه ليس من الممكن التوصل لمثل هذا الحل في ظل الظروف الراهنة، إلا أن الدولة المقترحة في حالة إقامتها ستخضع لسيطرة أغلبية يهودية عنصرية لا تمنح الفلسطينيين واليهود الشرقيين حقوقهم، وستبدأ الأقلية العربية معركة جديدة تطالب بالمساواة، قد تأخذ وقتاً طويلاً وتنتهي بالفشل.

لكن إسرائيل التي تمر بمرحلة التعنت السياسي والتطرف العنصري، والاستعداد لعملية تطهير عرقية جديدة ضد العرب، تمر أيضاً بمرحلة إنحسار كافة عناصر القوة التي ميزت الكيان الصهيوني لعقود متتالية. إذ على سبيل المثال، خسر الجيش الإسرائيلي في عام 2006 قوة الردع التي كان يملكها على أرض لبنان، وذلك بسبب نجاح حزب الله في هزيمته عسكرياً، كما أن حزب الله أثبت للعدو الصهيوني أن بإمكان صواريخ المقاومة اللبنانية الوصول إلى عمق إسرائيل وضرب التجمعات السكانية اليهودية، معلناً عملياً أنه يملك قودة ردع موازية. وفي عام 2008 تكررت تجربة الهزيمة العسكرية في

غزة حين فشلت إسرائيل في إسقاط حماس وإطلاق سراح الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط. من ناحية أخرى، تسببت الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل في حربها على لبنان وغزة في كشف حقيقة ما يتصف به الكيان الصهيوني من عنصرية واستعداد لارتكاب جرائم حرب وجرائم بحق الإنسانية. وهذا حطم أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، وكشف أكذوبة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. نتيجة لذلك بدأت عوامل الضعف تنخر في جسد الكيان الصهيوني وتنهكه يوما بعد يوم.

تمثل الدولة الواحدة الحل الوحيد الذي يستحق الدعم والتضحية، لكنه كي يكون إنسانيا وعادلا ويعيد الحقوق المغتصبة لأصحابها، لا بد وأن يأتي على مرحلتين: مرحلة تفكيك المشروع الصهيوني برمته، ومرحلة التفاهم مع كل من يختار البقاء من يهود فلسطين للعيش في الدولة الفلسطينية بحقوق وواجبات متساوية مع عرب فلسطين. إن تفكيك المشروع الصهيوني من شأنه تمكين كل فلسطيني من استعادة حقوقه وممتلكاته التي فقدتها في عام 1948، أو بعد ذلك داخل الخط الأخضر وفي الضفة الغربية. كما أن من شأنه أيضا قيام الدولة الجديدة بأغلبية عربية منذ يومها الأول، مما يجعل اليهود أقلية تتمتع بحقوق الأغلبية، ولكن دون حق اضطهاد العرب وممارسة التفرقة ضدهم كما هو عليه الحال اليوم. بعد تفكيك المشروع الصهيوني يدخل الطرفين العربي واليهودي عملية تفاوضية بإشراف دولي من هيئة الأمم ومنظمات حقوق الإنسان، وذلك بهدف تقييم ممتلكات اليهود ومساهماتهم في بناء الاقتصاد القائم حينئذ وتمليكهم تلك الممتلكات رسميا أو تعويضهم عنها إذا اختاروا الرحيل من فلسطين.. إذن عملية إقامة الدولة الفلسطينية العلمانية الديمقراطية لا بد وأن تتم على مرحلتين: مرحلة التصفية ومرحلة التسوية.. مرحلتين سلميتين بمشاركة كافة قوى السلام وحقوق الإنسان في العالم.

إن المفاوضات غير المباشرة التي بدأت في الآونة الأخيرة بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل بوساطة أمريكية لن تؤدي لتسوية سياسية تحقق الحد الأدنى من المطالب الفلسطينية.. لا فيما يتعلق بحدود الدولة المقترحة في الضفة الغربية وغزة، ولا فيما يتعلق بالقدس أو المستوطنات التي أقيمت في الأراضي الفلسطينية التي احتلت في عام 1967، ولا فيما يتعلق بالترتيبات الأمنية بين إسرائيل والدولة الفلسطينية التي يتم التفاوض بشأنها. أما فيما يتعلق بحقوق اللاجئين في العودة والتعويض فهي قضية مرفوضة أصلا من قبل كافة الأطراف الإسرائيلية. وفي الواقع ربما كان الموقف من قضية اللاجئين الفلسطينيين وحقوقهم التي نصت عليها قرارات هيئة الأمم المتحدة هي القضية التي تُجمع عليها كل التيارات السياسية الإسرائيلية.. لقد عبر إيهود باراك عن ذلك الاجتماع بشكل واضح حين قال: "لا حق، ولا عودة. وهذا ما قاله نتنياهو بشكل آخر حين صرح بأن قضية اللاجئين لا بد وأن تُحل خارج حدود دولة إسرائيل.

إن قيام تننياهو بالموافقة على تسوية تتعارض مع المبادئ المتفق عليها بين قوى التطرف والعنصرية في حكومته من شأنها أن تؤدي إلى إنهيار تلك الحكومة، وهذا شيء لا يمكن أن يقبل به سياسي انتهازي ينطلق من عقلية عنصرية عنجهية مثل تننياهو. وحتى في حالة انهيار حكومة تننياهو وإجراء انتخابات جديدة، فإن أي إئتلاف يأتي إلى الحكم لن يقبل بمطالب السلطة الفلسطينية المتواضعة. من ناحية ثانية، على السلطة الفلسطينية أن تتذكر أولاً أن حماس وقطاع كبير من الشعب الفلسطيني لن يقبلوا بتسوية تقوم على تنازلات عن حقوق تاريخية وإنسانية. وثانياً أن المفاوضات الفلسطينية لا يملك حق تمثيل الشعب الفلسطيني والتفاوض نيابة عنه والتنازل باسمه عن حقوقه في أرضه وممتلكاته الشخصية، كما أن الطرف الفلسطيني المفاوضات بغض النظر عن القبعة التي يلبسها، سواء كانت قبعة السلطة الوطنية أو قبعة منظمة التحرير الفلسطينية، لا يمثل وليس بإمكانه أن يدعي أنه يمثل فلسطينيي الداخل الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية.. إن لهؤلاء حقوق ومطالب هي جزء لا يتجزأ من حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية ولا بد من أن تأخذ بعين الاعتبار في أية تسوية.

إن الحملة الدولية التي تنادي بسحب الشرعية من إسرائيل وما يصاحب تلك الحملة من مقاطعة اقتصادية وثقافية، يجعل صورة إسرائيل تزداد تشوها كل يوم على الساحة الدولية. من ناحية ثانية، إن ما يعيشه المجتمع الإسرائيلي من تمحور اجتماعي وتخبط سياسي داخلي ودخول العلاقة مع أمريكا مرحلة جديدة يكتنفها الغموض يضعف ثقة إسرائيل بنفسها. وهذه تطورات سلبية تفرض على العرب استغلالها بالعمل على تعميقها، فكل يوم يمر يُضعف قدرات إسرائيل وثقتها بنفسها أكثر. لقد رفض الفلسطينيون ومعظم العرب الاستسلام وتوقيع إتفاقيات سلام حين كانت القوة الإسرائيلية في تصاعد، كما أنهم لم يكافئوا العدو الصهيوني على انتصاراته. لذلك لا يجوز أن يفاوض العرب وقوة العدو وسمعته وثقته بنفسه في تراجع، ويكافئوه على هزائمه. إن بإمكان المفاوضات الفلسطينية أن يتبع الخطة الإسرائيلية القديمة الجديدة.. التفاوض لكسب المزيد من الوقت وإعطاء إسرائيل فرصة أكبر لتدمير ذاتها.

قال جابوتنسكي قبل عشرات السنوات "إن الصهيونية مغامرة استعمارية، ولذلك فإن القوة العسكرية ستقرر إمكانيات النجاح والفشل.. إن من المهم أن نتكلم عبري، لكن الأهم هو أن نعرف كيف نقتل. إن أعمى العينين الذي يقول بأن هذا منافي للأخلاق، نقول له هذه هي أخلاقنا.. ليس هناك أخلاق أخرى. ما دام هناك بصيص أمل لدى العرب لإيقاف مشروعنا فإنهم لن يبيعوا ذلك الأمل بكلمات رقيقة أو بأي شيء آخر لأنهم ليسوا ركام وإنما شعب يعيش، ولأنه ليس هناك شعب يقوم بمثل هذه التنازلات بالنسبة لقضية مصيرية كهذه، إلا حين يفقد كل أمل.. حين تغلق كل فتحة في الجدار الفولاذي". وحيث أن

الفلسطيني لا يزال موجودا وصامدا على الأرض، فإن بصيص الأمل لا يزال موجودا، وبالتالي فإن الحلم الصهيوني لن يكتمل. في عام 1948 تم إغلاق الملف الفلسطيني بقرار من الصهيونية وتواطئ من الدول العربية التي كانت مجزأة ومحبطة ومهزومة، لكن أبناء فلسطين قاموا في أوائل الستينات بإعادة فتح ذلك الملف. لذلك لا يجوز للقيادة الحالية إغلاق ملف شاركت في شرف إعادة فتحه، لأن ذلك يعني توأطئها في استكمال المشروع الصهيوني. وفي الواقع، لم يعد هناك قوة قادرة على إغلاق الملف الفلسطيني لأن الملف الصهيوني البديل فُتح، وبأن ما في داخله من أكاذيب وجرائم. إن توقيع أية اتفاقية سلام مع إسرائيل اليوم هو عمل يصب مباشرة في أمنية جابوتنسكي.. قتل الأمل الفلسطيني، وانتهاك حقوقه، وتحطيم آمنيات الأمة العربية في الحرية والتحرر، ومكافأة المجرمين من صهاينة وأمريكيين وأوروبيين على جرائمهم التي لا تُغتفر.

[www.yazour.com](http://www.yazour.com)

د. محمد عبد العزيز ربيع